عبد الناصر والصراع العربي ـ الاسرائيلي

ياسين الحافظ

بعد أن قضت الامبريالية الانكليزية ، بالتضامن مع الدول الامبريالية الاخرى ، على أولى محاولات الوحدة العربية والتحديث التي قادها محمد علي وابنه ابراهيم في العام ١٨٤٠ ، انتقلت الى وضع أساس او حاجز يقف أمام احتمالات الوحدة . هنا نبشت مشروع نابوليون القديم ، القاضي بانشاء وطن قومي يهودي يتصدى لاحتمالات المشاريع « التوسعية » ، التي قد يستأنفها محمد علي او احد خلفائه ، للعودة الى سوريا (على حد قول بالمرستون) ، وضمان أمن مواصلات الامبراطورية بالتالي(١) . لقد امسكت الامبريالية الانكليزية اذن بمفتاح المسألة الاول ، وما لبثت ان امسكت بالمفتاح الثاني : فما دامت احتمالات النهضة تكاد تكون متمركزة في مصر ، وان الاحتمالات الوحدوية الجدية ستنطلق بالتالي من مصر وتدور حولها ، لذا عملت الامبريالية الانكليزية ، بعد احتلال مصر في اواخر القرن التاسع عشر ، على تشجيع ايديولوجيا قومية مصرية(٢) ، مهمتها تكريس عزلة مصر التي فرضتها الامبريالية بقوة السلاح بقضائها على مشروع محمد علي الوحدوي .

هذه النزعة القومية المصرية التي تقولبت ، بعد القضاء على حركة عرابي وبعد ان ضعفت تأثيرات الافغاني على محمد عبده ، في قالب الاخير الاصلاحي ، الذي كان نصف مجدد ونصف تقليدي ، نصف وطني ونصف مهادن للاستعمار ، كان لا بد لها ان تفرز وعيا ملتبسا وقاصرا لقضية فلسطين .

ما دامت مصر تشكل أمة ، لذا كانت قضية فلسطين ، بمعنى ما ، والى حد ما ، مشكلة خارجية . لم تكن القيادات الوطنية التقليدية تولي قضية فلسطين الاهتمام الذي تفرضه أهميتها وخطورتها . اما المثقفون والجماعات السياسية التي كانت تولي هذه القضية عناية أكبر ، تبقى ناقصة على كل حال ، فكانت بالاحرى تقليدية واسلامية ما قبل بورجوازية عموما ، ترى في الصهيونية خطرا على شعب « آخر » تربطه بشعب مصر رابطة الدين والجوار .

اضف الى ذلك ان الطابع غير الراديكالي للقيادات الوطنية الجماهيرية المصرية جعلها ، على حد قول عبدالناصر ، عاجزة على أن تمد بصرها عبر سيناء ، فلم تلتقط لا الابعاد الحقيقية للغزو الصهيوني ، ولا دوره في الاجتياح الامبريالي للوطن العربي ، ولا البعد الحقيقي لاستقلال مصر الفعلي ، هذا البعد الذي اكتشفه عبد الناصر عندما وعى ان الافق الحقيقي لتحرير مصر تحررا كاملا يشرط تحرر الوطن العربي كله ، بل افريقيا ايضا ، من النفوذ الامبريالي ، وبالتالي زوال اسرائيل التي هي انعكاس للنفوذ الامبريالي وجيب من جيوبه .

(٢)

قبل ان يستلم عبد الناصر السلطة ، بل عندما كانت عملية تنظيم الضباط الاحرار في